٥

المقامة السندسية في النسبة المصطفوية

للشيخ العلامة جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي
المتوفى سنة ٩١١هـ/ ١٥٠٥م

قدم له وشرحه وعلق عليه
الدكتور محمد عز الدين السعيدي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى . وسلام على عباده الذين آصطفى . وبعد فهذا مصنف شريف . مؤلف جليل منيف[١] . للشيخ الإمام العالم العلامة ، العمدة الفهامة ، وحيد دهره ، فريد عصره ، جامع أشتات الفضائل ، حاوي عقود جواهر الأواخر والأوائل ؛ جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن ابن الشيخ الإمام والحبر الهمام كمال الدين أبي بكر السيوطي[٢] الشافعي - تغمدهما الله برحمته ، وأسكنهما بُحْبُوحة[٣] جنته - يشتمل على إظهار ما خفي من الدلائل والبراهين على إسلام أبوي المصطفى ، وسماه « المقامة السُندسُية[٤] في النسبة المصطفوية » قال :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ[٥] حَرِيصٌ

---

(١) أي مرتفع مشرف .

(٢) أسيوط - بضم الألف وسكون السين وضم الياء : بليدة بديار مصر من الريف الأعلى بالصعيد ، ومنهم من يسقط الألف فيقول : سيوط ، كما في اللباب لابن الأثير .

(٣) بحبوحة الدار : وسطها . - العيش : رغده وخياره .

(٤) السندس : ضرب من نسيج الديباج أو الحرير .

(٥) من عنت عنتاً : وقع في أمر شاق . لقي الشدة وهلك . اكتسب مأثماً - الرشيد القادري .

عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[١] . نبي سري[٢] ، قدره عليّ ، وبرهانه جلي ؛ خير الخليقة أماً وأباً ، وأزكاهم حسباً ونسباً ؛ خلق الله لأجله الكونين ، وأقرَّ به من كل مؤمن العينين ؛ وجعله نبي الأنبياء وآدم منجدل[٣] في طينته[٤] ، وكتب اسمه على العرش إعلاماً بمرتبته عنده وفضيلته ؛ وتوسل به آدم فتاب عليه ، وأخبره أنه لولاه ما خلقه وناهيك بها مزية لديه :

ي خص بالتقديم قدماً وآدم بعد في طين وماء
كريم بالحيا[٥] من راحتيه يجود وفي المحيا[٦] بالحياء

ومن خصائصه فيما ذكره الغزالي وغيره أن الله مَلَّكه الجنة ، وأذِنَ له أن يقطع منها من يشاء ما يشاء وأعظم بذلك منة ؛ وخصه بطهارة النسب تعظيماً لشأنه ، وحفظ آباءه من الدنس تتميماً لبرهانه ، وجعل كل أصل من أصوله خير أهل زمانه ؛ كما قال في حديث البخاري الذي نقطع بصدوره فيه :

«بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بني آدم قَرْناً فَقَرْناً حتى كُنْتُ مِنَ القرن الذي كُنْتُ فِيهِ» .

وقال عليه السلام : «أنا أنفسكم نسباً ، وصهراً وحسباً ، لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذباً ، لا تنشعب شعبتان إلا كنتُ في خيرهما فأنا خيركم نفساً وخيركم أباً» . وأجدر بقول

---

(١) الآية ١٢٨ / من سورة التوبة .

(٢) سري : صاحب المروءة في شرف أو السخاء في مروءة . السيد الشريف السخي .

(٣) من الجدل وهو الإلقاء على الأرض الصلبة .

(٤) أي في خلقته .

(٥) الحيا والحياء : المطر .

(٦) المحيا : الوجه ـ الرشيد القادري .

صاحب البردة ، أن يكون له في عرصات القيامة عدة :

وَبَدَا لِلْوُجُود مِنْكَ كَرِيم ... مِن كَرِيم آبَاؤُهُ كُرَمَاء
نَسَبٌ تَحْسَبُ العُلَى بِحُلاهُ[١] ... قَلَّدتها نُجُومها الجوزاء[٢]
حَبذا عِقْد سُودَد وفَخَار ... أنتَ فِيهِ اليتيمة[٣] العَصْمَاء

وينظم في سلك هذه الدرر ، قول حافظ العصر ، أبي الفضل بن حجر :

نبي الْهدَى الْمُخْتَار مِنْ آل هاشم ... فعن فخرهم فليقصر المتطاول[٤]
تنقل في أصلاب قوم تشرفوا ... به مثل ما للبدر تلك المنازل

وقد ورد أن قريشاً كانت نوراً بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق آدم بألفي عام ، يسبح ذلك النور وتسبح الملائكة بتسبيحه عليهم الصلاة والسلام ، ثم ألقى ذلك النور في صلب آدم وهو الدرة الفاخرة ، قال : ثم لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة ؛ ويشهد لذلك بالاستيناس ، ما أنشده إياه عمه العباس - رضي الله عنه .

من قبلها طبت في الظلال وفي ... مستودع حيث يخصف الورق[٥]
ثم هبطت البلاد لا بشر ... أنت ولا مضغة ولا علق

---

(١) الحلى جمع الحلية على غير القياس : ما يزين به من مصوغ المعدنيات أو الحجارة الكريمة .

(٢) الجوزاء : نجم ، يقال إنه يعترض في جوز السماء أي وسطه . والجوزاء من بروج السماء .

(٣) الدرة اليتيمة : الثمينة لا نظير لها .

(٤) تطاول : تكبر وترفع . تطاولاً : تبارياً .

(٥) أي في الجنة حيث خصف آدم وحواء عليهما السلام من ورق الجنة - كما في النهاية .

بل نطفة تركب السفين[1] وقد | الجم نسراً[2] وأهله الغرق
تنقل من صالب[3] إلى رحم | إذا مضى عالم بدا طبق
حتى احتوى بيتك المهيمن[4] من | خندف علياء تحتها النطق[5]
وأنت لما ولدت أشرقت الأر | ض وضاءت بنورك الأفق
فنحن في ذلك الضياء وفي | النور وسبل الرشاد نخترق[6]

وأخذ الميثاق على النبيين إن جاءهم أن يؤمنوا به وينصروه[7] ، ولو أدركوه لما وسعهم إلا أن يتبعوه ويعزروه ويوقروه[8] ؛ وأرسله إلى جميع الخلق كافةً ، من الإنسِ والجن والملائكة الصافة .

قال البارزي : وأدخل في دعوته الحيوانات والجمادات والحجر والشجر ، وقال السبكي : هو مرسل إلى كل مَنْ تقدم مِنَ الأمم وغبر ؛ قال : فجميع الأنبياء وأممهم كلهم من أمته ، ومشمولون برسالته ونبوته ، ولذلك يأتي عيسى ـ عليه السلام ـ في آخر الزمان على شريعته ؛ فجميع

(١) السفين جمع السفينة : المركب .

(٢) نسر : صنم من أصنام قوم نوح عليه السلام ، وقد تدخل عليه الألف واللام ، وهو المذكور في قوله تعالى : ﴿ ولا يغوث ويعوق ونسراً ﴾ .

(٣) الصلب والصالب : عظم في الظهر ذو فقار يمتد من الكاهل إلى العجب أو أسفل الظهر .

(٤) المهيمن : المؤمن من الخوف .

(٥) النطق جمع نطاق وهي أعراض من جبال بعضها فوق بعض أي نواح وأوساط منها ، شبهت بالنطق التي يشد بها أوساط الناس ضربه مثلاً له في ارتفاعه وتوسطه في عشيرته وجعلهم تحته بمنزلة أوساط الجبال ، وأراد ببيته شرفه . أي حتى احتوى شرفك الشاهد على فضلك أعلى مكان من نسب خندف ـ كما في النهاية .

(٦) أي نمر .

(٧) راجع سورة ٣ آية ٨١ .

(٨) راجع سورة ٤٨ آية ٩ ـ الرشيد القادري .

الشرائع التي جاءت بها الأنبياء شرائعه ومنسوبة إليه ، فهو نبي الأنبياء وما جاءوا به إلى أممهم أحكامه في الأزمنة المتقدمة عليه . هكذا قرره ذلك الإمام الحبر الذي لا تكاد تسمح الأعصار له بنظير ، وأفرد له تأليفاً مستقلاً حقه أن يرقم على السندس بالنضير(١) ؛ ويوافقه من النظم النضيري ؛ قول الشرف البوصيري :

وكل آي أتى الرُّسُلُ الكرامُ بِهَا ... فَإنَّما اتصلتْ مِنْ نوره بهم
فَإنَّهُ شَمْسُ فَضلٍ هُمْ كَوَاكِبُهَا ... يُظْهِرنَ أنوارهَا لِلناسِ في الظلم
وكلهم من رسول الله ملتمس ... غرفاً من البحر أو رشفاً(٢) من الديم
وواقفون لديه عند حدهم ... من نقطة العلم أو من شكلة الحكم

وأجرى على يديه من المعجزات ألوفاً جملة ، وآتاه من الخصائص ما لم يؤته نبي قبله ؛ وكان مما نسب من المعجزات والخصائص إليه ، إحياؤه ، حتى آمنا به ، أبويه ؛ وما زال كلام أهل العلم والحديث ، في القديم والحديث ؛ يَرْوُون هذا الخبر وبه يُسَرُّون ، وينشرونه بين الناس ولا يسرون ؛ ويجعلونه في عداد الخصائص والمعجزات ، ويدخلونه في حيز المناقب والمكرمات ؛ ويرون أن ضعف إسناده في هذا المقام مغتفر ، وأن إيراد ما ضعف في الفضائل والمناقب معتبر ؛ وقد خرَّجت الأئمة في أبواب المناقب ما هو أشد ضعفاً من هذا ، وتسامحوا فيها بإيراد ما لم يصل إلى رتبته ولا حاذى ؛ ووجَّهوه بأنواع من التوجيه ، وارتضوه لما فيه من التبرئة والتنزيه .

فقال القرطبي : إن فضائل النبي صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) النضير : الذهب والفضة . وقد غلب على الذهب .
(٢) رشف الماء ونحوه : مصه بشفتيه ـ الرشيد القادري .

وخصائصه لم تزل تتوالى إلى حين مماته ، وتتابع إلى وقت وفاته : فيكون هذا مما فضله الله وأكرمه فضلاً ، وليس إحياؤهما بممتنع شرعاً ولا عقلاً .

وقال ابن سيد الناس : ذكر بعض أهل العلم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يزل راقياً في المقامات السنية ، صاعداً في الدرجات العلية ؛ إلى أن قبض الله روحه الطاهرة إليه ، وأزلفه بما خصه به لديه ، من الكرامة حين القدوم عليه ؛ فمن الجائز أن تكون هذه درجة حصلت له بعد أن لم تكن ، وأن الإحياء والإيمان متأخر عن تلك الأحاديث فلا تعارض .

وقال الحافظ شمس الدين بن ناصر الدين الدمشقي :

حبا(١) الله النبي مزيد فضل ... على فضل وكان به رؤوفا
فأحيا أمه وكذا أباه ... لإيمان به فضلاً لطيفا
فسلم فالقديم بذا قدير ... وإن كان الحديث به ضعيفا

وبعض الأساطين أيده وشيده ، وأكده وأطده(٢) ، وقواه وشدده ، ومهد طريقه وسدده ؛ بأنه وافق القاعدة التي اتفقت عليها الأمة كلها ، أنه لم يؤت نبي معجزة أو خصيصة إلا وقع لنبينا مثلها ؛ وقد أوتي عيسى - عليه السلام - إحياء الموتى من القبور ، فلا بد أن يكون له نظيره وليس إلا هذه القصة في ما اشتهر من المأثور ؛ وإن كان وقع له من هذا النمط نطق الذراع ، وحنين الخشبة من الأجذاع ؛ فإن قصة الأبوين أقرب إلى المماثلة ، وأنسب بالمشاكلة ؛ ومن الأصول المحررة ، أن الحديث الضعيف يتقوى بموافقة القاعدة المقررة .

---

(١) حباه كذا وبكذا : أعطاه إياه بلا جزاء .

(٢) يقال « وطد الله للسلطان ملكه وأطده » إذا ثبته ، كما في لسان العرب - الرشيد القادري .

وذهب المحققون في شأنهما إلى ما هو أقوى مدركاً، وأصح مسلكاً؛ وهو أن حكمهما حكم من لم تبلغه الدعوة من أهل الفترة، إذْ لم يثبت أنهما دعيا وعاندا وكل مولود يولد على الفطرة؛ مع ضميمة أنهما قبضا في أوان الشباب، ولم يبلغا سن من بلغ الأحقاب(١): فلم يسع عمرهما الوقوف على الأخبار بالإخبار من الأحبار، والفحص عنها إلى الأسفار بالأسفار إلى حملة الأسفار(٢).

وقد ورد في أهل الفترة أحاديث صحاح وحسان، بأنهم موقوفون للامتحان، بين يدي الملك الديان(٣)، فمن سبقت له السعادة أطاع ودخل الجنان، ومن سبقت له الشقاوة عصى وأدخل النيران؛ ومن هنا نشأت قاعدة من لم تبلغه الدعوة، فأطبق على نجاته من له بمذهب الإمامين الشافعي والأشعري قدوة(٤).

وأجابوا عن الأحاديث التي بعضها في صحيح مسلم، بأنها منسوخة بالأدلة التي بنوا عليها قاعدة شكر المنعم؛ وقد أوردوا على ذلك من التنزيل أصولاً:

منها قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾(٥).

وقال تعالى في بيان إنه لا يعاقب أحد قبل البعثة ولا يجزى: ﴿ وَلَوْ

---

(١) الحقب بالضم وسكون القاف ثمانون سنة، وقيل أكثر من ذلك، وجمعه حقاب؛ والحقبة بالكسر وسكون القاف واحدة الحقب وهي السنون، والحقب بضمتين: الدهر، وجمعه أحقاب.

(٢) الأول والثالث جمع السفر بالكسر بمعنى الكتاب الكبير والثاني جمع السفر بالفتح.

(٣) الديان: القاضي. القهار. الحاكم والسائس. المحاسب والمجازي.

(٤) يقال «لي بك قدوة» أي أسوة.

(٥) الآية ١٥/ من سورة الاسراء. ـ الرشيد القادري.

أنا أهلكنهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آيتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾[١].

وقال تعالى في سورة ﴿ طسم تلك ءايت الكتب المبين ﴾: ﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آيتك ونكون من المؤمنين ﴾[٢].

وقال تعالى في هذه السورة وبه استدل العالمون: ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلوا عليهم ءايتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظلمون ﴾[٣].

وقال تعالى في عدم تكليف الغافل وبه قال الناقلون: ﴿ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غفلون ﴾[٤].

وقال تعالى في هذه السورة وهو أصدق القائلين: ﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغفلين ﴾[٥].

وقال تعالى في سورة الشعراء تنبيهاً للعالمين: ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون * ذكرى وما كنا ظلمين ﴾[٦].

وقال تعالى قطعاً لعذر الكفار حيث لا يجدون في النار من نصير: ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صلحاً غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ﴾[٧].

---

(١) الآية ١٣٤/ من سورة طه.

(٢) الآية ٤٧/ من سورة القصص.

(٣) الآية ٥٩/ من سورة القصص.

(٤) الآية ١٣١/ من سورة الأنعام.

(٥) الآية ١٥٦/ من سورة الأنعام.

(٦) الآيتان ٢٠٨ و٢٠٩/ من سورة الشعراء.

(٧) الآية ٣٧/ من سورة فاطر.

وبالجملة فهذه القاعدة مقطوع بها عندنا في الفقه والأصول، مستغنية لشهرتها عن أن يورد فيها شيء من النقول ؛ ونظير هذا نسخ تعذيب أطفال المشركين بما هو أحرى ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[1] .

وعلى هذا التخريج يحمل ما لوح به حديث الحاكم وصححه عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه صلى الله عليه وآله وسلم سُئل عن أبويه فقال : ما سألتهما ربي فيعطيني فيهما وإني لقائم المقام المحمود ؛ فلوح بأنه يرتجى لهما في ذلك المقام الشفاعة ، وليست إلاّ في التوفيق عند الامتحان للطاعة : وعلى ذلك يحمل حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - فيما رواه تمام في فوائده[2] المروية : إذا كان يومَ القيامة شفعت لأبي وأمي وعمي وأخ لي كان في الجاهلية . والمراد أخوه من الرضاعة وهو ابن حليمة السعدية .

وقد تأوله المحب الطبري في حق عمه على أنها شفاعة في التخفيف كما في مسلم ، ولا بد من هذا التأويل في حقه لأنه أدرك البعثة ولم يُسلم ؛ وسلك الإمام فخر الدين الرازي مسلكاً آخر في غاية التبجيل والتعظيم ، فقال : إنهما لم يكونا مشركين بل كانا على التوحيد وملة إبراهيم - عليه السلام ؛ وزاد أن أجداده صلى الله عليه وآله وسلم كلهم إلى آدم - عليه السلام - كذلك ، سالكون من التوحيد في أقوم المسالك .

واستدل بما في التنزيل الذي هو قرة عين العابدين ، ﴿ ٱلَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّاجِدِينَ ﴾[3] ، وبقوله تعالى : ﴿ إنما المشركون

(١) الآية ١٦٤/ من سورة الأنعام.

(٢) فوائد تمام الرازي في الحديث ، كشف الظنون - الرشيد القادري .

(٣) الآيتان ٢١٨ و٢١٩/ من سورة الشعراء.

أَنَّا أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ (١).

وقال تعالى في سورة ﴿ طسٓمٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾: ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢).

وقال تعالى في هذه السورة وبه استدل العالمون: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ (٣).

وقال تعالى في عدم تكليف الغافل وبه قال الناقلون: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ (٤).

وقال تعالى في هذه السورة وهو أصدق القائلين: ﴿ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾ (٥).

وقال تعالى في سورة الشعراء تنبيهاً للعالمين: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ * ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ (٦).

وقال تعالى قطعاً لعذر الكفار حيث لا يجدون في النار من نصير: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ (٧).

---

(١) الآية ١٣٤/ من سورة طه.
(٢) الآية ٤٧/ من سورة القصص.
(٣) الآية ٥٩/ من سورة القصص.
(٤) الآية ١٣١/ من سورة الأنعام.
(٥) الآية ١٥٦/ من سورة الأنعام.
(٦) الآيتان ٢٠٨ و٢٠٩/ من سورة الشعراء.
(٧) الآية ٣٧/ من سورة فاطر.

وبالجملة فهذه القاعدة مقطوع بها غندنا في الفقه والأصول، مستغنية لشهرتها عن أن يورد فيها شيء من النقول ؛ ونظير هذا نسخ تعذيب أطفال المشركين بما هو أحرى ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[1] .

وعلى هذا التخريج يحمل ما لوح به حديث الحاكم وصححه عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه صلى الله عليه وآله وسلم سُئل عن أبويه فقال : ما سألتهما ربي فيعطيني فيهما وإني لقائم المقام المحمود ؛ فلوح بأنه يرتجى لهما في ذلك المقام الشفاعة ، وليست إلاَّ في التوفيق عند الامتحان للطاعة : وعلى ذلك يحمل حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - فيما رواه تمام في فوائده[2] المروية : إذا كان يومَ القيامة شفعت لأبي وأمي وعمي وأخ لي كان في الجاهلية . والمراد أخوه من الرضاعة وهو ابن حليمة السعدية .

وقد تأوله المحب الطبري في حق عمه على أنها شفاعة في التخفيف كما في مسلم ، ولا بد من هذا التأويل في حقه لأنه أدرك البعثة ولم يُسلم ؛ وسلك الإمام فخر الدين الرازي مسلكاً آخر في غاية التبجيل والتعظيم ، فقال : إنهما لم يكونا مشركين بل كانا على التوحيد وملة إبراهيم - عليه السلام ؛ وزاد أن أجداده صلى الله عليه وآله وسلم كلهم إلى آدم - عليه السلام - كذلك ، سالكون من التوحيد في أقوم المسالك .

واستدل بما في التنزيل الذي هو قرة عين العابدين ، ﴿ ٱلَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّاجِدِينَ ﴾[3] ، وبقوله تعالى : ﴿ إنما المشركون

(١) الآية ١٦٤/ من سورة الأنعام.

(٢) فوائد تمام الرازي في الحديث ، كشف الظنون - الرشيد القادري .

(٣) الآيتان ٢١٨ و٢١٩/ من سورة الشعراء.

نجس ﴾(١) فذلك صفة الكافرين ؛ وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم : لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين.

وقد استقريْتُ أحوال جداد سيد بني قصي ، فوجدتهم مؤمنين متقين من آدم ـ عليه السلام ـ إلى مرة بن كعب بن لؤي ؛ إلا أنه يستثنى منهم آزر إن كان والد إبراهيم ـ عليه السلام ؛ وإن كان عمه كما رجحه الإمام وقال به جماعة من السلف فالأمر على التعميم.

وقد صحت الآثار الواردة بأنه لم يكن بين آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ نسمة جاحدة ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾(٢) ،

وفي التنزيل حكاية عن نوح ـ عليه السلام ـ داعياً مؤمناً. ﴿ ربِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً ﴾(٣) : وسام بن نوح قيل : إنه نبي وولده أرفخشد صديق . وقد أدرك جده نوحاً ودعا له وكان في خدمته نعم الرفيق.

وفي « طبقات ابن سعد » إن الناس من عهد نوح لم يزالوا ببابل(٤) وهم على الإسلام ، إلى أن ملكهم نمرود بن كوش بن كنعان فدعاهم إلى عبادة الأصنام ؛ وأما العرب فصحت الأحاديث في البخاري وغيره ولكل راو واعي ، بأنه لم يكن منهم أحد مشرك من عهد إبراهيم إلى عهد عمرو

---

(١) الآية ٢٨ / من سورة التوبة.

(٢) الآية ٢١٣ / من سورة البقرة. (٣) الآية ٢٨ / من سورة نوح.

(٤) بابل بكسر الباء اسم ناحية منها الكوفة والحلة ، ينسب إليها السحر والخمر . وقال المفسرون في قوله تعالى : ﴿ وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ﴾ قيل بابل العراق ، وقيل بابل دنباوند ، وقال أبو الحسن : بابل الكوفة ؛ ويقال إن أول من سكنها نوح عليه السلام وهو أول من عمرها ، راجع معجم البلدان ٢ / ١٨ ـ الرشيد القادري.

ابن عامر الخزاعي ؛ فهو أول من عبد الأصنام ، وغيّر دين إبراهام ؛ ورآه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بسبب ذلك يجرُّ قصبه[١] في النار ، قد نص العلماء على هذه الجملة وروتها الحملة في عدة من الأخبار.

وقد أخرج ابن حبيب في تاريخه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وهو جدير بأن يجد له في السير ، قال : كان عدنان ومعد وربيعة ومضر وخزيمة وأسد على ملة إبراهيم - عليه السلام - فلا تذكروهم إلا بخير.

وفي « الروض الأُنُف» حديث : لا تسبوا إلياس - عليه السلام ! فإنه كان مؤمناً ، وناهيك به بياناً.

وفي «دلائل النبوة » لأبي نعيم إن كعب بن لؤي أوصى ولده بالإيمان بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان ينشد إعلاناً :

يا ليتني شاهد نجواء دعوته   إذا قريش تبغي الحق خذلانا

وأما كلاب وقصي وعبد مناف وهاشم ، فلم أظفر فيهم في واحد من الجانبين بنقل جازم.

وأما عبد المطلب ففيه خلاف والأشبه أنه من أهل الفترة ، وممن لم تبلغه الدعوة كرة ؛ وقد استشهد أولئك القبيل ، بقوله في قصة أصحاب الفيل :

لاهُمَّ[٢] أن المرء يمنع رحله فامنع حلالك
وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك

---

(١) القصب - بالضم : المعي ج أقصاب ، وقيل : القصب اسم للأمعاء كلها . وقيل : هو ما كان أسفل البطن منها ؛ الدر النثير للسيوطي - الرشيد القادري .

(٢) وفي الخصائص الكبرى ١/٤٤ : اللهم .

وقد استدل مجاهد وسفيان بن عيينة على استمرار التوحيد في ذرية إبراهام، بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ آمِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾(١).

وصح في تفسير ابن المنذر عن ابن جريج وهو العالم الأواه، في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾(٢). قال: فلن يزال من ذرية إبراهيم ـ عليه السلام ـ ناس على الفترة يعبدون الله.

وورد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ومجاهد وقتادة بسند نعتمده، في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ﴾(٣) قال: الإخلاص والتوحيد لا يزال في ذريته من يوحد الله ويعبده.

وما أحسن قول الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي:

تَنَقَّلَ أحمد نُوراً عَظِيماً ... تَلألأ في جِباهِ السَّاجِدِينَا
تَقَلَّبَ فِيهِمْ قَرْناً فَقَرْناً ... إلى أن جَاءَ خَيْرَ الْمُرْسَلِينَا

هذه خلاصة النقول والأدلة، وهي بدور مسفرة لا نجوم أو أهلة؛ شرحت صدور الأصحاب. وأشرقت إشراق الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب: فمن أدام نظره وتأملها، وألقى فكره لها وما لها: ونظر إليها منصفاً، وضح له منها ما خفي: ومن قويَ عنده غير ذلك. وترجح في نظره ما هنالك؛ فدونه وما شاء دون إنكار. فليس في الاختيار ولاية إجبار، فإن كان ممن إذا نظر في الأدلة مازها وماززها. وإذا قد قومة الرجال ماسها وماسها. فليختر لنفسه أي قول! وليركب في ترجيحه كل هول! ولينفق في نصرته من سعة ذات يده إن كان ذا طول! وإن قصر

---

(١) الآية ٣٥/ من سورة ابراهيم. (٢) الآية ٤٠/ من سورة إبراهيم.
(٣) الآية ٢٨/ من سورة الزخرف ـ ابرشيد القادري.

باعه ، وانحصر إطلاعه ؛ فمد لسانه إلى البذا[١] ، وتناول بالشتم والأذى ؛ فإنا لله ، ولا حول ولا قوة إلا بذي الطول ؛ وإن رام بزعمه أن ارجع عما اخترته فلو قطعت إرباً إرباً ما رجعت ، ولم أقصد سوى أن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ؛ ولقد وصل إليَّ عن رجل من أهل الحديث . وممن سعى فيه طول عمره السعي الحثيث[٢] : أنه ذكر له ما قلته فصاح . وأعرض بوجهه وأشاح[٣] ؛ وأجرى من فمه سيلاً ، وجر من لسانه ذيلاً . وكسا وجه الصباح ليلاً : وكاد يطير مع بنات النعش[٤] ، وحاص[٥] حيصة حمر الوحش ؛ ثم زأر[٦] وشزر[٧] في النظر ، وكلح[٨] بوجهه وبسر[٩] . وقال فحشاً وهجر ، وهذى في منطقه وهذر[١٠] ، وصرح بأنهما ـ نعوذ بالله ! من أهل سقر .

وذكر أنه نزل فيهما من القرآن العظيم ﴿ وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ ٱلْجَحِيمِ ﴾[١١] فقلت للناقل : لمَ لا لجأت إلى وزر ! وهلاّ ألقمت فاه من كلام شيخه وهو الركن المشيد بحجر ! وأطفأت النار التي أوقدها من

(١) بذا عليه : تكلم بالفحش .
(٢) الحثيث : السريع ، يقال «ولى حثيثاً» أي مسرعاً .
(٣) أشاح وجهه وبوجهه وأشاح عنه وجهه . أعرض متكرهاً .
(٤) بنات نعش الكبرى : سبعة كواكب تشاهدها جهة القطب الشمالي وبقربها سبعة أخرى تسمى بنات نعش الصغرى .
(٥) أي حاد ، هرب ونفر . دابة حيوص : نفور . المحيص : المحيد . المهرب .
(٦) زأر الأسد ؛ صات من صدره .
(٧) شزر الرجل وإليه : نظر إليه بجانب عينه مع إعراض أو غضب .
(٨) كلح وجهه : عبس وتكبر فهو كالح .
(٩) بسر : قطب وجهه فهو باسر .
(١٠) هذر الرجل في كلامه : هذى أي خلط وتكلم بما لا ينبغي ـ الرشيد القادري .
(١١) الآية ١١٩/ من سورة البقرة .

زفر بزفر من زفر[١] ؛ وعلمت أنه يضرب في حديد بارد إذا ضربنا نحن في ذهب ذائب[٢] ، ويرمي عن وتر منقطع إذا فَوَّقنا[٣] نحن كل سهم صائب ؛ ولو أنه اقتصر على ذكر المنقول من غير سفهٍ لم يكن عليه من بأس ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ؛ أفرحٌ بالعلو ، أم تجاوزاً إلى حد الغلو ! أم إعظاماً لنفسه واستكباراً ، واحتقاراً لغيره واستصغاراً ! أم استجاشة[٤] على مثلي واستنصاراً ! أأتقن قاعدة شكر المنعم التي مبنى هذه المسألة عليها ، أأحكم قاعدة التحسين والتقبيح التي مرد[٥] هذه القاعدة إليها ! أعرف حكم الغافل من حيث التكيف ، أدرى حكم الأفعال قبل البعثة هل توصف بالتشديد أو التخفيف! أعلم فن الأصول، وقواعد الاستدلال، والترجيح عند تعارض النقول :

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

أنسي ما بدا منه من برهة في مسألة رؤية الأنبياء يقظة ، وما أنكره عليَّ من إفتائي بإمكانها كما نص عليه الأئمة والحفظة ! فبادر بقوله : إن ذلك مستحيل ، وأخذ يغبر في الوجه الجميل ، ويفرح بكثرة القال والقيل ؛وما شعر أن هذا القول يؤول إلاَّ لمن يعذر بجهله إلى كفره ، وينبىء تعالى الله علواً كبيراً عن استقصار لقدره .

---

(١) زفر الرجل زفراً وزفيراً : أخرج نفسه مع مده إياه . وزفر إذا ستقى فحمل . وزفر الحمار : أخذ في النهيق . وزفرت النار : سمع صوت توقدها . الزفر - بالضم : الأسد ، الشجاع ، البحر .

(٢) من ذاب إذا سال . نقيض جمد .

(٣) فوَّق السهم : جعل له فوقاً . والفوق - بالضم : مشق رأس السهم حيث يقع الوتر .

(٤) استجاش الجيش . جمعه . - الأمير : طلب منه الجند والجيش .

(٥) أي أحكم ، والمارد . المرتفع ، المحكم . والتمريد : التمليس والتسوية والتطيين . الممرد : بناء مطول - رشيد القادري .

ثم لما شددت عليه النكير ، وبلغه أن ذلك يلزم منه ـ والعياذ بالله ! والتكفير ؛ بَدَّل قوله وحوَّل ، وقال : إنما أنكرت دعوى الإجماع وتأول ، فكان قوله الثاني أشد سوءاً من قوله الأول ؛ لأن صلاحية القدرة للممكنات لا يختلف فيها اثنان ولا تتجزى ، ومن لا يميز بين الجائز والمستحيل فسكوته عن الإنكار أحرى وتصديه له أخزى ؛ وقد قلت في تلك الواقعة :

رؤية الأنبياء بعد الممات أدخلوها في حيز الممكنات
قل لمن قال إنه مستحيل أترك الخوض عنك في الغمرات
أنت لا تعرف المحال ولا الممكن لا ما بالغير أو بالذات
فاحترز أن تزل زلة كفر وتوقَّ مواقع الزلات

ونعود إلى ما نحن فيه ليت شعري ما الذي أنكره عليَّ ، وفوَّق بسببه سهامه إليَّ ! أترجيح جانب النجاة أمَا لي فيه من سلف صالح ! أمَا تقدمني إليه من أئمة كل منهم لو وزن بالجبال فهو عليها راجح ! فإن اعتذر بعدم الوقوف كان عذره جلياً ، أو بالنسيان فقد خلق الإنسان نسياً !

وما سمي الإنسان إلا لنسيه ولا القلب إلا أنه يتقلب

وهل يستبعد على من أنجى الله به الثقلين ، أن ينجي به الأبوين ! فإن استبعد هو ذلك فليست الشدة عندي بأرجح من الرخاء ، وإن استكثر ذلك فإنه لبخيل حيث شح بأجمل الأمرين وهو السخاء :

شح السخاوي بالإنجاء يذكره عن والدي سيد الأنبياء والأمم
إن عز أن يبلغ البحر الخضم[1] روى يا ليته يستقي من وابل الديم

أم ظن إني أقدمت على الترجيح لا لمستند ، أو بمجرد التشهي من

---

(١) الخضم ـ بكسر الخاء وفتح الضاد : البحر العظيم .

زفر بزفر من زفر[١] ؛ وعلمت أنه يضرب في حديد بارد إذا ضربنا نحن في ذهب ذائب[٢] ، ويرمي عن وتر منقطع إذا فَوَّقنا[٣] نحن كل سهم صائب ؛ ولو أنه اقتصر على ذكر المنقول من غير سفهٍ لم يكن عليه من بأس ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ؛ أفرحُ بالعلو ، أم تجاوزاً إلى حد الغلو ! أم إعظاماً لنفسه واستكباراً ، واحتقاراً لغيره واستصغاراً ! أم استجاشة[٤] على مثلي واستنصاراً ! أأتقن قاعدة شكر المنعم التي مبنى هذه المسألة عليها ، أأحكم قاعدة التحسين والتقبيح التي مرد[٥] هذه القاعدة إليها ! أعرف حكم الغافل من حيث التكيف ، أدرى حكم الأفعال قبل البعثة هل توصف بالتشديد أو التخفيف! أعلم فن الأصول، وقواعد الاستدلال، والترجيح عند تعارض النقول :

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله ... لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

أنسي ما بدا منه من برهة في مسألة رؤية الأنبياء يقظة ، وما أنكره عليَّ من إفتائي بإمكانها كما نص عليه الأئمة والحفظة ! فبادر بقوله : إن ذلك مستحيل ، وأخذ يغبر في الوجه الجميل ، ويفرح بكثرة القال والقيل ؛ وما شعر أن هذا القول يؤول إلا لمن يعذر بجهله إلى كفره ، وينبىء تعالى الله علواً كبيراً عن استقصار لقدره .

---

(١) زفر الرجل زفراً وزفيراً : أخرج نفسه مع مده إياه . وزفر إذا استقى فحمل . وزفر الحمار : أخذ في النهيق . وزفرت النار : سمع صوت توقدها . الزفر - بالضم : الأسد ، الشجاع ، البحر .

(٢) من ذاب إذا سال . نقيض جمد .

(٣) فوَّق السهم : جعل له فوقاً . والفوق - بالضم : مشق رأس السهم حيث يقع الوتر .

(٤) استجاش الجيش : جمعه . - الأمير : طلب منه المدد والجيش .

(٥) أيْ أحكم ، والمارد : المرتفع ، المحكم . والتمريد : التمليس والتسوية والتطيين . الممرد : بناء مطول - الرشيد القادري .

ثم لما شددت عليه النكير ، وبلغه أن ذلك يلزم منه - والعياذ بالله ! والتكفير ؛ بَدَّل قوله وحوَّل ، وقال : إنما أنكرت دعوى الإجماع وتأول ، فكان قوله الثاني أشد سوءاً من قوله الأول ؛ لأن صلاحية القدرة للممكنات لا يختلف فيها اثنان ولا تتجزى ، ومن لا يميز بين الجائز والمستحيل فسكوته عن الإنكار أحرى وتصديه له أخزى ؛ وقد قلت في تلك الواقعة :

رؤية الأنبياء بعد الممات ... أدخلوها في حيز الممكنات
قل لمن قال إنه مستحيل ... أترك الخوض عنك في الغمرات
أنت لا تعرف المحال ولا الممكن ... لا ما بالغير أو بالذات
فاحترز أن تزل زلة كفر ... وتوقَّ مواقع الزلات

ونعود إلى ما نحن فيه ليت شعري ما الذي أنكره عليَّ ، وفوَّق بسببه سهامه إليَّ ! أترجيح جانب النجاة أمَا لي فيه من سلف صالح ! أمَا تقدمني إليه من أئمة كل منهم لو وزن بالجبال فهو عليها راجح ! فإن اعتذر بعدم الوقوف كان عذره جلياً ، أو بالنسيان فقد خلق الإنسان نسياً !

وما سمي الإنسان إلا لنسيه ... ولا القلب إلا أنه يتقلب

وهل يستبعد على من أنجى الله به الثقلين ، أن ينجي به الأبوين ! فإن استبعد هو ذلك فليست الشدة عندي بأرجح من الرخاء ، وإن استكثر ذلك فإنه لبخيل حيث شح بأجمل الأمرين وهو السخاء :

شح السخاوي بالإنجاء يذكره ... عن والدي سيد الأنبياء والأمم
إن عز أن يبلغ البحر الخضم[1] روى ... يا ليته يستقي من وابل الديم

أم ظن إني أقدمت على الترجيح لا لمستند ، أو بمجرد التشهي من

---

(١) الخضم - بكسر الخاء وفتح الضاد : البحر العظيم .

غير دليل معتمد ! معاذ الله ! بل لما قام عندي من أدلة قاطعة ساطعة ، ناصعة[1] لامعة ، جامعة مانعة ، هامعة رائعة ، صادعة قامعة ، بارعة باقعة ، جازمة لازمة ، مثبتة هازمة ؛ صحيحة صريحة . متعبة مريحة ، حاصرة فسيحة ؛ تامة عامة ، كاملة شاملة ، كافلة حافلة ، تجزم ولا تجزم ، وتهزم إن شاء الله تعالى ولا تهزم ؛ كما قيل :

أتمسي القوافي تحت غير لوائنا ونحن على قوالها أمراء

أم أنكر عليَّ السكوت عن القول الآخر ورام مني أن أجريه على الألسنة ! فيا سبحان الله ! ما لي ولحكايته أنائم أنا أم في سنة ! أمَا أكون من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ! أمَا يحق لي أن أضرب بيني وبينه بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب!

أمّا أوّلاً فلأن العلماء أرشدوا في مثل هذا إلى الصمت ، وعدوه من حسن الأدب والهدى والسمت ؛ وأمّا ثانياً فلأن السائل عن ذلك ممن يقر المعاد ويستطرد في الكلام ، ويحضر مجلسه النساء والعوام ، ومن هم بعيدو الأفهام ، ومن هم حديثو عهد بالإسلام ، أفأكون سبباً في وصول ذلك إلى أسماعهم ، ووسيلة إلى تحدثهم به مع نقص فهمهم وجفاء طباعهم ؛ كلا ، والله . لكل مقام مقال ، وما كل ما يعلم يقال .

وقد روى البيهقي في شعب الإيمان عن بعض السلف قال : من كان عقله أصغر من علمه قتله علمه ، ومن تكلم هدر دمه . وكثر ذمه ؛ ثم يا ليت شعري أيّ غرض لي في ذلك ! أيتعلق به أصل من أصول الدين يخشى من السكوت عنه ضياع أو زلل ، أم عبادة فيحصل بالصمت عنه

---

(١) الناصع والنصيع : الخالص الصافي يقال « أصفر ناصع وأبيض ناصع » . الرشيد القادري .

فساد فيها أو خلل ؛ أم عقد مالي فيؤدي إلى اختلاله ، أم نكاح فرج فيفضي إلى استحلاله ، أم دم يخاف من كتمه أن يسفك ، أم عرض يحذر من ستره أن يهتك ! كلا ، بل الأدب مطلوب ، والصمت عن كثير من الأشياء واجب أو مندوب.

ترك الأمور التي تخشى عواقبها   في الله أحسن في الدنيا وفي الدين

وأمّا احتجاج المنكر في هذا المقام العظيم ، بأنه نزل فيهما ﴿ وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾[1].

فنقول : قد تقرر في علوم الحديث أن سبب النزول حكمه حكم الحديث المرفوع ، لا يقبل منه إلاَّ الصحيح المتصل الإسناد لا ضعيف ولا منطوع ؛ وهذا السبب لا يعرف له في الدنيا إسناد صحيح متصل يذكره ، والمنكر يعرف ذلك ويعترف به إذا عرض عليه ولا ينكره ؛ فإن احتج في التعذيب بضعيف فأحاديث النجاة مع كونها أمثل منه أولى بالقبول ، وإن تشبث في النيران بهذا المقطوع فهلا تشبث في الجنان بذاك الموصول ؛ مع ما ينضم إلى ذلك من حيث بلاغة الخطاب ، إن الآيات من قبل ومن بعد كلها في أهل الكتاب ؛ من قوله تعالى : ﴿ يا بَنِي إِسْرَٰئِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾[2] أولاً ، إلى قوله : ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ المتلوة بقوله : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ ﴾[3] ؛ ولهذا ختمت القصة بمثل ما صدرت ، وكرر نداء بني إسرائيل إيذاناً بالختم لطولها حين تقررت ؛ فدل على أن المراد بأصحاب الجحيم كفار أهل الكتاب ، الحائدون عن الإنابة والمثاب .

---

(١) الآية ١١٩/ من سورة التوبة.

(٢) الآية ٤٠/ من سورة البقرة.

(٣) الآية ١٢٤/ من سورة البقرة.

ويؤكد ذلك أن السورة مدنية ، خوطب فيها من بني إسرائيل الذرية ؛ وأكثر ما خوطب فيها اليهود ، الناقضون ما في التوراة من العهود ؛ ويشهد له من المنقول ما أخرجه الفريابي وعبد بن حميد عن مجاهد أحد أئمة التنزيل ، قال من أربعين آية من سورة البقرة إلى عشرين ومائة في بني إسرائيل.

ويرشح ذلك من المناسبة اللفظية والمعنوية ، أن الجحيم اسم لما عظم من النار كما هو مقتضى اللغة والآثار المروية.

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك أحد التابعين الأبرار ، في قوله تعالى : ﴿ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾[1] ، قال : الجحيم ما عظم من النار.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في قوله تعالى : « لها سبعة أبواب » ، قال : أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم سعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية ، قال : والجحيم فيها أبو جهل الحواب[2] ؛ فاللائق بهذه المنزلة من عظم كفره ، واشتد وزره ؛ وعاند عن علم ويقين ، وبدل ما عنده من آيات الكتاب المبين ؛ وجحد ما يعلمه وأنكر ، وحرف ما في التوراة وغير ؛ وكذَّب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في رسالته ، وهو مأمور في كتابه بتصديقه واتباعه وطاعته ؛ ولا يليق ذلك بأهل فترة لا علم عندهم ولا كتاب ، ولا عناد ولا تبديل لشيء من الخطاب ؛ فإن هذه الدركة ليست لهذا القبيل ، خصوصاً من هو من المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بسبيل أيّ سبيل.

وقد صح في أبي طالب أنه أهون أهل النار عذاباً ، لما حازه به من

---

(١) الآية ١١٩/ من سورة البقرة.

(٢) من الحوب بمعنى الإثم والذنب ـ الرشيد القادري.

بره وقرابته اقتراباً ؛ هذا مع امتداد عمره ، وامتناعه من طاعة أمره ؛ فما ظنك بأبويه اللذين هما أشد قرباً ، وآكد حباً ، وأقصر عمراً ، وأبسط عذراً ؛ فمعاذ الله ! أن يكونا في طبقة الجحيم ، وأن يشدد عليهما العذاب العظيم ! هذا لا يفهمه من له أدنى ذوق سليم .

وأما قول المنكر أنه وردت أحاديث كثيرة في عذابهما فقد وقفت عليها بأسرها ، وبالغت في جمعها وحصرها ؛ وأكثرها ما بين ضعيف ومعلول ، والصحيح منها منسوخ بما تقدم من النقول ، أو معارض فيطلب الترجيح على ما تقرر في الأصول.

وقد أتى بعض أئمة المالكية بجواب ساطع ، فقال : هذه أخبار آحاد لا تعارض القاطع ؛ وليت شعري ! ماذا يقول المنكر في أطفال المشركين ، والخبر بأنهم في النار متين مبين ! فإن قال بمقتضاه فقد أكبر القول ، وأعظم الهول ؛ وإن قال بقول الناس ، ورفع عنهم البأس ؛ فقد سلم العدول عن الأخبار ، الواردة بأنهم في النار ؛ وليس إلا لكونها من المنسوخ ، عند أهل التحقيق والرسوخ ؛ وذلك بالشفاعة الواقعة من المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فيهم ، حيث قال : سألت ربي اللاهين من ذرية البشر فأعطانيهم ؛ وقد وقع الناسخ للأطفال ومن لم تبلغهم الدعوة مقترنين نزولاً ، في قوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[1] : فالجملة الأولى نسخت تعذيب الأطفال، والثانية نسخت أخبار التعذيب قبل الإرسال ؛ فانظر إلى هذه الأسرار المودعة في نظم القرآن ، والمناسبات المبدعة في ترتيب الفرقان !

---

(١) الآية /١٥/ من سورة الإسراء .

قل للسخاوي أن تعروك[1] مشكلة   علمي كبحر من الأمواج ملتطم

فإن قال قد تقدمت دعوة عيسى - عليه السلام - قلنا لم يثبت أنها وصلت إليهما ، ولا وجد من يخبرهما بها ويكشف أمرها لديهما ؛ ولو كان تقدم ذلك يمنع ما تقرر ، لم يوجد في الدنيا أهل فترة في زمان محرر ؛ فإن الأنبياء قبل عيسى - عليه السلام - مبعوثون في أقطار العالم ، وما من فترة متقدمة إلاّ وقبلها نبي إلى آدم - عليه السلام - وليس قبل آدم بشر يتعلق بهم أحكام ، من كفر أو إسلام ، أو حلال أو حرام .

فإن اعتبرنا تقدم بعثة ما وإن لم تصل إليهم ، استحالت أحاديث أهل الفترة إذْ لم يوجد بهذا الوصف قوم يحكم بها عليهم ؛ ولا شك أن ألفاظ الحديث صريحة ، ومبانيها فصيحة ؛ في أن المراد بأهل الفترة من كان بعد دثور[2] شريعة عيسى - عليه السلام - وقبل بعثة نبينا السراج المنير ، وهو ظاهر من قوله تعالى : ﴿ يَٰأَهْلَ الكِتَٰبِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَآءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾[3] .

وقال المفسرون رأى العين ، الفترة ما بين النبيين ؛ وقال ابن جرير في هذه الآية القول الحسن ، الفترة انقطاع الرسل بعد مجيئهم من فتر الأمر إذا هدأ وسكن .

وقال الجوهري في الصحاح قولاً أبانه ، الفترة ما بين الرسولين من

---

(١) من عرا يعرو فلاناً أمر : ألمّ به - الرشيد القادري .

(٢) دثر دثوراً الرسم : بلي وامحى .

(٣) الآية ١٩ / من سورة الأنعام - الرشيد القادري .

رسل الله سبحانه ؛ فلا تكون فترة حتى يتقدمها دعوة رسول ، ثم يتمادى الزمان فيدثر أمرها ويطول ؛ ولفظ حديث الحاكم وهو على شرط الشيخين صحيح الإسناد ، إذا كان يوم القيامة جاء أهل الجاهلية يحملون أوثانهم على ظهورهم ثم ذكر بقية الحديث في الامتحان وهو صريح في المراد.

وقد نص إمامنا الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه وهو بعد البعثة بمائتين من السنين ، على أن في زمانه من لم تبلغه الدعوة وهم قوم وراء الصين ، فإذا وجد من لم تبلغه الدعوة بعد بعثة نبينا بمائتي سنة والإسلام ظاهر والدين وافر ، فما ظنك بزمن الجاهلية التي عم فيها الكفر والجهل طبق الأرض وغلب فيها كل كافر ! وبالجملة فالمدار على بلوغ الدعوة وعدمه فمن لم تبلغه فهو ناجٍ سواء كان قبل البعثة المحمدية أو بعدها ، ومن كان في زمن الفترة وبلغته فهو في النار إذا أصر على العناد وردها .

وهذا القسم الأخير محل إجماع ، ليس فيه بين أحد من الخلق نزاع ؛ وهو الذي أشار إليه النووي في شرح مسلم ، فمن عذره الله ورسوله فهو المعذور ومن يهن الله فما له من مكرم.

وقد ذكر الأبي[1] في شرح مسلم هذه المسألة فأطنب فيها وأتقن وأحكم ، وقال : أهل الفترة هم الأمم الكائنة بين أزمنة الرسل الذين لم يرسل إليهم الأول ولا أدركوا الثاني كالأعراب الذين لم يرسل إليهم عيسى عليه السلام ولا لحقوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

قال : ثم أهل الفترة فيما ذكر عقيل بن أبي طالب ـ رضي الله

---

(١) الإمام أبو عبد الله محمد بن خليفة الوشتاني الأبي المكي المتوفى سنة سبع وعشرين وثماني مائة ، واسم شرحه « إكمال المعلم » وهو كبير في أربع مجلدات ، كما في كشف الظنون ـ الرشيد القادري .

عنه ـ ثلاثة أقسام ، الأول من أدرك التوحيد ببصيرته سواء لم يدخل في شريعة كزيد بن عمرو بن نفيل أم دخل في شريعة عيسى عليه السلام ؛ والثاني من لم يشرك ولم يوحد ولا دخل في شريعة نبي ولا ابتكر لنفسه شريعة ، ولا اخترع ديناً با بقي عمره على حال غفلة عن هذا كله تاركاً جميعه . قال : وفي الجاهلية من كان كذلك وهم أهل الفترة حقيقة ، قال : وهم غير معذبين للقطع كما قررنا طريقه ؛ والثالث من أشرك ولم يوحد وبدل وغير ، وشرع لنفسه فحلل وحرم وهم الأكثر ؛ قال : وعلى هذا القسم يحمل من صح تعذيبه ، أو يجاب بأنها أخبار آحاد لا تعارض القاطع كما تقدم تقريره وتهذيبه : وزاد بعض من تأخر من أهل العلم ، أنه يجب إخراج الأبوين الشريفين من هذا القسم .

وقد وردت آثار أخر يُستأنس بها في هذا المقام ، وإن لم تكن نصاً في المرام.

كما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾(١)، قال : من رِضَى محمد عليه الصلاة والسلام أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار وبهذا العموم يقضي .

وما أخرجه أبو سعيد في «شرف النبوة»(٢) وغيره من حديث عمران ابن حصين مرفوع المسالك ، وسألت ربي أن لا يدخل النار أحداً من أهل بيتي فأعطاني ذلك ؛ وعموم اللفظ وإن طرقه الاحتمال معتبر . وتوجيهه ما

---

(١) الآية ٥/ من سورة الضحى

(٢) « شرف النبوة » من كتب الأحديث لأبي سعيد عبد الملك بن أبي عثمان محمد الواعظ الخركوشي المار ذكره . كذا في « فضائل العشرة » ؛ كشف الظنون ـ الرشيد القادري .

أشرنا إليه في أوائل المقامة قبيل حديث ابن عمر.

ولهذا قال حافظ العصر أبو الفضل بن حجر، قولاً جامعاً بين مرعة الأصول والأثر ؛ الظن بآله كلهم من أهل الفترة أن يطيعوا عند الامتحان. لتقر بهم عينه صلى الله عليه وآله وسلم في الجنان ؛ ولو كنا نحب إيراد الأحاديث الواهيات كبعض من سلك، لأوردنا حديث: أوحى الله إني إني حرمت النار على صلب أنزلك وبطن حملك ؛ لكني لا أحتج بمثل هذا ولا أستمطر منه وابلاً ولا رذاذاً[1] ؛ فإن في الأدلة القوية غنى عن وهٍ فيه تكلم، ومهما طلع البدر استغنى عن النجوم وإذا حضر الماء بطل التيمم ؛ والذي نقوله في أخينا هذا المنكر إنه غير مدفوع عن علم بالحديث وذين. وما هو عن درجة الحفظ من المبعدين ؛ غير إنّا كرهنا منه إطلاق اللسان. والتغيير في وجوه المعاني الحسان ؛ أما ورد الحث على طيب الكلام وحفظ الألسنة ! ولا تستوي السيئة ولا الحسنة ؛ جعلنا الله وإياه من العلماء العاملين، ونزع ما في صدورنا من غل وجمعنا في الجنة إخواناً على سرر متقابلين.

وقد أنشأت هذه المقامة وسميتها « المقامة السُنْدُسيَّة » وخدمت بها النسبة الشريفة المصطفوية الطاهرة القدسية ؛ ولي برهة منذ تركت الدخول في شيء من هذه الأمور غير محصورة، ولكني لم يسعني التخلف عن هذه القضية فجعلتها كالمستثناة للضرورة، وقد رجوت بها الفوز بجنات النعيم، وتوصلت إلى مرضاة هذا النبي الكريم، المحبو بالتبجيل والتكريم، عليه أفضل الصلاة والتسليم، وأتحفت بها كل ذي ذهن قويم، وطبع سليم، وفوق كل ذي علم عليم، فإن تولوا فقل حسبي الله

---

(١) الرذاذ : المطر الخفيف - الرشيد القادري.

لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

* * *

وفي الختام ندعو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بها ويوفقنا لما يحبه ويرضاه. وصلى الله على خير خلقه سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.